



مدن الشرق الأوسط

دراسة في التغير البنيوي

بقلم : د. عبد العزيز آل الشيخ
ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

مايو (أيار) ١٩٨٠م
جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ

١٧

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية





مدن الشرق الأوسط

دراسة في التغير البنيوي

بقلم : د. عبد العزيز آل الشيخ
ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

مايو (أيار) ١٩٨٠م
جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ

١٧

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

المراسلات : الجمعية الجغرافية الكويتية - ص.ب ١٧٠٥١ - الخالدية - الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مدن الشرق الأوسط
دراسة في التغير البنيوي

بقلم : د. عبد العزيز آل الشيخ *
ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

لا شك أن هناك من الاعتبارات ما يبرر دراستنا للعناصر الاساسية للبنية الداخلية لمعظم مدن الشرق الاوسط على أساس فترات زمنية ثلاث ، خاصة ما يرتبط منها بالانماط السكنية المميزة لهذه المدن . فقد تميزت في الفترة الزمنية الاولى بالتماسك وصغر الحجم وتباينه في نفس الوقت ، كما تميزت بانقسامها الى عدة أحياء ، مع وجود سور يحيط بها . أما في الفترة الزمنية الثانية ، فقد تميزت (نتيجة لاتصالاتها بالغرب) بوجود مدن جديدة بالاضافة الى بعض التغيرات التي طرأت على المدن القديمة نفسها . أما في الفترة الثالثة — وهي الفترة المعاصرة — فقد جاءت في أعقاب حصول دول المنطقة على استقلالها السياسي ، وما ترتب على ذلك من اعادة التنظيم المكاني للسكان ، ومغادرة العناصر الاجنبية للبلاد ، وتحركات بعض السكان الوطنيين في المناطق المختلفة بالمدن ، واستحداث مناطق سكنية جديدة تكون قادرة على استيعاب مزيد من الوافدين اليها والذين جاءوا على نطاق واسع لم تشهد له هذه المدن مثيلا من قبل ، بالاضافة الى هجرة بعض الاقليات الدينية . ولقد تمثلت أهم التغيرات التي طرأت خلال هذه المرحلة في استحداث مساحات سكنية جديدة نتيجة لتزايد الطلب على سكنى هذه المدن .

المدينة الاسلامية

انماط عامة :

ربما يكون من المفيد قبل دراستنا للسمات المكانية المرتبطة بالمدن الاسلامية ، أن نوضح أمرين على جانب من الاهمية : الاول يرتبط بتعريف المدينة

---

* المؤلف يعمل استاذا بقسم الجغرافيا — جامعة الرياض — المملكة العربية السعودية .

من وجهة نظر الجغرافيين والمؤرخين المسلمين ، والثاني هو حجم المدينة وعلاقتها بالانماط العامة التي نقوم بدراستها هنا (فمثلا هل كان للمدن الصغيرة نفس ما كان للمدن الكبيرة أو العواصم من التنظيمات المكانية ؟) . وفيما يتعلق بالامر الاول ينبغي أن يكون واضحا منذ البداية أن الاسلام دين يعتمد أساسا على الاستقرار الحضري للسكان وليس على الترحل والانتقال ، ويمكن أن يتضح ذلك بجلاء من خلال النص القرآني الكريم نفسه . فصلاة الجمعة لا يمكن أن تتم بتلك الصورة الجامعة الا بتأثير ووجود تجمع بشري مستقر (١) ، كما أن العوامل العسكرية من جهة أخرى ، شأنها شأن العوامل السياسية ، قد عملتا على استحداث مدن جديدة (٢) . وكلمة مدينة كما استخدمت من قبل الجغرافيين المسلمين لم تكن بالاشارة الى حجم السكان فيها ، أو تشابك وظائفها ، فقد كانت هناك الكثير من القرى التي تزيد في حجمها على بعض ما أطلق عليه « مدينة » . فالمدينة تعني أساسا العاصمة الادارية ، وبنفس القدر تعني العاصمة الدينية . فوجود « الجامع » — أو المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة — وحده لا يكفي ليكون أساسا لتعريف المدينة نظرا لوجود نظير له في المدن الصغيرة والقرى ومراكز الحصون والمحطات التجارية ، الا أن لكل « مدينة » جامع واحد أو أكثر ، وربما توافرت مساكن أخرى غيره في المدينة . ويقول لابيدوس Lapidus ان المسجد « الجامع » يمثل مظهر الاستقرار البشري بكل أنواعه ، سواء كان حضريا أو ريفيا من وجهة النظر الجغرافية ، الا أن مدلول « مدينة » و « غير مدينة » انما يمثل مظهر الاستقرار البشري من وجهة النظر السياسية (٣) .

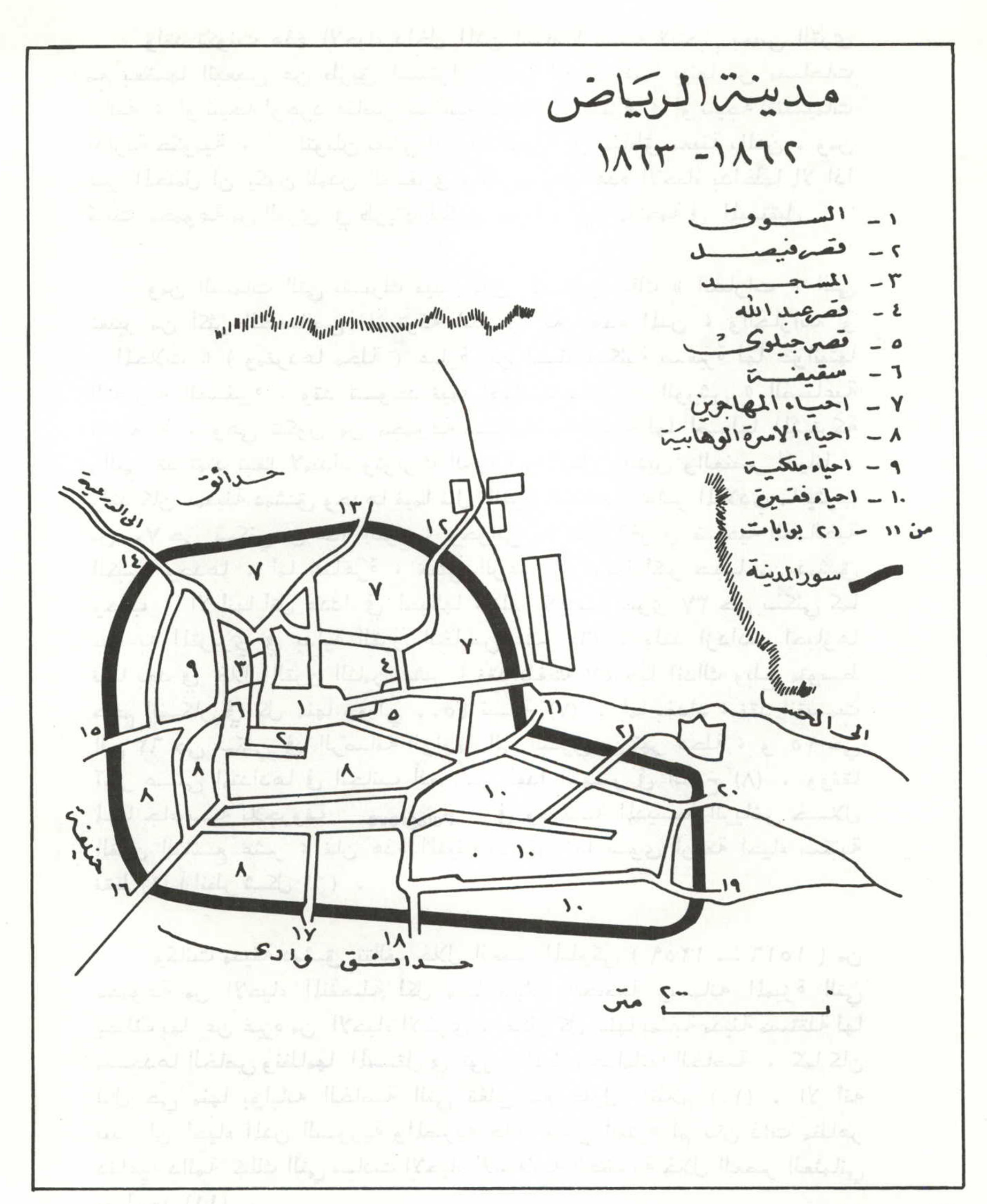
ان المدى الكبير للوظائف الاخرى « بالاضافة الى الجامع » كالمدرسة والشرطة وما شابه ذلك من مرافق هي من السمات المميزة للمدن الاسلامية .

أما فيما يتعلق بحجم المدينة كشرط لاحتوائها على النموذج العام والموحد لنمط الحي السكني ، فهناك عدة استفسارات حولها ، فيذكر جوليك Gulic . ان المدن الكبرى وحدها هي التي تحتوي على أحياء سكنية كما هو الحال بالنسبة لمدن القاهرة ودمشق والقدس . أما المدن الاصغر حجما ، فليس لها مثل هذا التركيب الذي يميز أنماطها السكنية . فلقد بلغ عدد سكان مدينة طرابلس اللبنانية على سبيل المثال ما يتراوح بين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ نسمة في عام ١٧٨٤ ، وهذا الرقم يعني أن حجم سكان هذه المدينة بكاملها يمثل عدد سكان حي واحد من أحياء القاهرة (٤) . أما لابيدوس، فيذكر من جانب آخر ان بغداد والقاهرة كمدن رئيسية كبرى تنقسم الى أحياء وضواحي . وبالمثل ، فان المدن الاصغر تتكون هي الأخرى من أحياء مميزة (٥) .

ولقد تكونت هذه الاحياء داخل المدن أساسا نتيجة لالتحام بعض القرى مع بعضها البعض عن طريق استقرار بعض القبائل فيما بينها من مساحات خالية ، أو نتيجة لوجود عناصر سكانية جديدة أو مميزة ، أو نتيجة لتقسيمات ادارية حكومية ، أو لتوطن بعض الحرف المميزة في مناطق معينة بالمدن . ومن غير المحتمل أن يكون للمدن الصغرى والقرى مثل هذه الاحياء بداخلها الا اذا كانت مجموعة من القرى في طريقها لتكون مدينة واحدة ملتحمة في المستقبل .

ومن السمات التي تشترك فيها المدن الاسلامية تلك « الحارات » التي تعتبر من أكثر الخصائص المشتركة انتشارا بين هذه المدن ، والحارات أو « المحلات » (ومفردها محلة) عبارة عن أحياء سكنية صغيرة لها حوانيتها التجارية الصغيرة ، وقد تـوجد فيها أحيانـا بعض « الورش » الصناعية الصغيرة ، وهي تتكون من مجموعة سكانية متجانسة لها أصولها المشتركة والتي قد تمتد تبعا لامتداد وتوارث الحرفة والاصل والدين والعنصر أحيانا . ولقد كان بمدينة دمشق وحدها فيما قبل القرن السادس عشر الميلادي ما يقرب من ٧٠ حي سكني من هذا النوع ، وحوالي ٣٠ حي آخر في ضاحية الصالحية الكبيرة وحدها . أما القاهرة ، فعلى الرغم من كونها أكبر حجما من دمشق وحلب ، الا أنها أقل عددا في أحيائها ، فلم يكن بها سوى ٣٧ حي سكني كما جاء به المقريزي في بداية القرن الخامس عشر (٦) . ولقد ازدادت احياؤها فيما بعد في خلال القرن الثامن عشر ، فقد بلغت ٥٧ حيا آنذاك وبلغ متوسط حجم السكان في كل منها حوالي ٤٥٠٠ نسمة (٧) . أما بغداد ، فقد انقسمت الى ٦٣ حي سكني في الرصافة الواقعة الى الشرق من نهر دجلة ، و ٢٥ حي آخر عـلى امتدادها في الجانب الغربـي لهذا النهـر في الكرخ (٨) . ووفقا لمـا جاء بـه بلاجروف Palagrove في وصفـه المدينـة الرياض خـلال القرن التاسع عشر ، فان هذه المدينة لم يكن لها سوى أربعة أحياء سكنية فقط (٩) (أنظر شكل ١) .

وكانت مدينة دمشق تتألف خلال العصر المملوكي (١٢٥٩ ــ ١٥١٦) من مجموعة من الاحياء المنفصلة لكل منها حياته الخاصة وسماته المميزة التي يختلف بها عن غيره من الاحياء الاخرى . فكان كل منها بمثابة مدينة مستقلة لها مسجدها الخاص ونظامها المستقل في توزيع المياه وحماماتها الخاصة . كما كان لكل حي منها بواباته الخاصة التي تغلق مع حلول الظلام (١٠) . الا أنه يبدو ان أحياء المدن السورية والمصرية خلال نفس الفترة لم تكن ذات مظاهر دفاعية دائمة كتلك التي سادت الاحياء الاسلامية الحضرية خلال العصر العثماني فيما بعد (١١) .



عن : بلاجريف

شكل (١)

وينبغي أن نربط أسباب عزلة تلك الوحدات الطبيعية على شكل أحياء بالاحوال غير المستقرة وغير الآمنة لتلك المدن . فقد كان البدو يغزون المدن . وفي تلك الفترات قامت الحاجة الى بناء أسوار حولها (١٢) .

وعلى الرغم من هذه الانماط الطبيعية المنعزلة من المناطق المعمورة في المدن الاسلامية ، الا أن ثمة ثلاثة عناصر كانت تعمل على توحيد سكانها كافة: **الاول** ويتمثل في تلك الاسوار التي كانت تحيط بالمدينة ، فمن خلال درء الاخطار الخارجية التي يتعرضون لها ، كان لا بد من التحام السكان في المدينة على اختلاف حرفهم وطوائفهم في جيش يدافعون به عن مدينتهم ، والعنصر **الثاني** يتمثل في المسجد الجامع الذي كان بمثابة مركز لممارسة الشعائر الدينية ومركز اشعاع تعليمي ومركزا للحكم وادارة الشؤون السياسية في وقت واحد . أما العنصر **الاخير** فيتمثل في السوق المركزي للمدينة والذي فيه كانت تتم المعاملات التجارية اليومية (١٣) .

وعموما يمكن القول بأن المدينة الاسلامية كانت مؤهلة تأهيلا جيدا للقيام بأدوار محددة الملامح لتكون استجابة لنظامها المركزي ولتقسيمها الهرمي ولمجلسها البلدي المركزي في المناطق التجارية بها ، وللعناصر والاقليات الدينية في مناطقها المعمورة (١٤) .

وتتشابه الظروف البيئية للمدينة الاسلامية سواء كانت القاهرة أو دمشق أو بغداد أو الرياض أو القدس في عدة جوانب . فهي محاطة بالاسوار اللازمة للدفاع عنها ، ورقعتها السكنية مقسمة الى عدة أحياء منفصلة ، وان بها مسجدها الجامع وسوقها الذي يمثل المركز التجاري الذي تعيش حوله فئة الاثرياء وغيرهم من السكان ، والذين يساهمون في مختلف الانشطة التجارية بالمدينة . ولقد كان لبعض المدن الاسلامية أحيانا — كما كان الحال في المدن السورية مثلا — حمام عام يقع قريبا من السوق ، أما شوارع وطرقات الاحياء المختلفة ، فكانت تمثل شبكة معقدة ومحيرة من الممرات والمسالك المظلمة والمتعرجة والتي قد تكون نافذة الى أخرى وقد لا تكون (١٥) .

التوزيع المكاني للسكان

ان العنصر الاساسي للتقسيم المكاني في المدن الاسلامية والذي تمثل في وجود الاحياء السكنية المختلفة ، انما يتمثل في الاصول المشتركة لسكان القرى التي اندمجت مع بعضها مكونة هذه المدن فيما بعد . ويعتقد لابيدوس أن

المهاجرين من حوران ــ تلك المدينة السورية ــ ربما استطاعوا أن يحافظوا على هويتهم المميزة ووحدتهم من خلال تواجدهم في حي واحد مستقل داخل مدينة دمشق . كذلك فقد انقسمت مدينة القدس الى عدد من الاحياء التي تمثلت فيها مجموعات سكانية لعدد من القرى أو الجماعات القبلية (١٦) ، أما بغداد فقد انقسمت هي الاخرى الى عدد من الاحياء المنفصلة خلال القرنين التاسع والعاشر، وكانت للجماعات المهاجرة سواء من البصرة أو ايران أو المدن الآسيوية الاخرى أحياءهم المميزة داخل هذه المدينة .

أما الاعتبارات الاقتصادية ، فيمكن اعتبارها هي الاخرى من العوامل التي ساعدت على التجانس الذي ســاد بين كل حــي من أحيــاء هذه المدن . فالحرية الشائعــة عادة مــا تعطي هذه الاحيــاء مميزاتها الخاصة . ومن هذه الحرف على سبيل المثال طحن الحبوب والصناعات الحجرية والصباغة والدباغة ، ومثل هذه الحرف تجمع عمالها والمشتغلين فيها مناطق مستقلة عادة، أما الاحياء التي تقع على الطرق العامة ، فقد تخصصت في خدمات القــوافل والنقلوتسويق الحبوب والحيوانات ، كما ارتبطت بالبضائع والخدمات اللازمة لكل من سكان الريف والبدو . أما الاحياء الموجودة في جنوب دمشق ، فقد انتشرت على امتداد الطريق الرئيسي المؤدي الى مناطق انتاج الحبوب (١٧) . ولم يكن هناك أي اتصال بين مكان العمل ومكان الاقامة في المدن الاسلامية ، شأنها في ذلك شأن كافة المدن في مرحلة ما قبل الصناعة . الا انه منذ أن أخذ كل نوع من أنواع التجارة جزءا مميزا أو شارعا مستقلا يتركز فيه داخل المدينة ، فقد بدأ تركز السكان يتم تبعا لهذه الحرف .

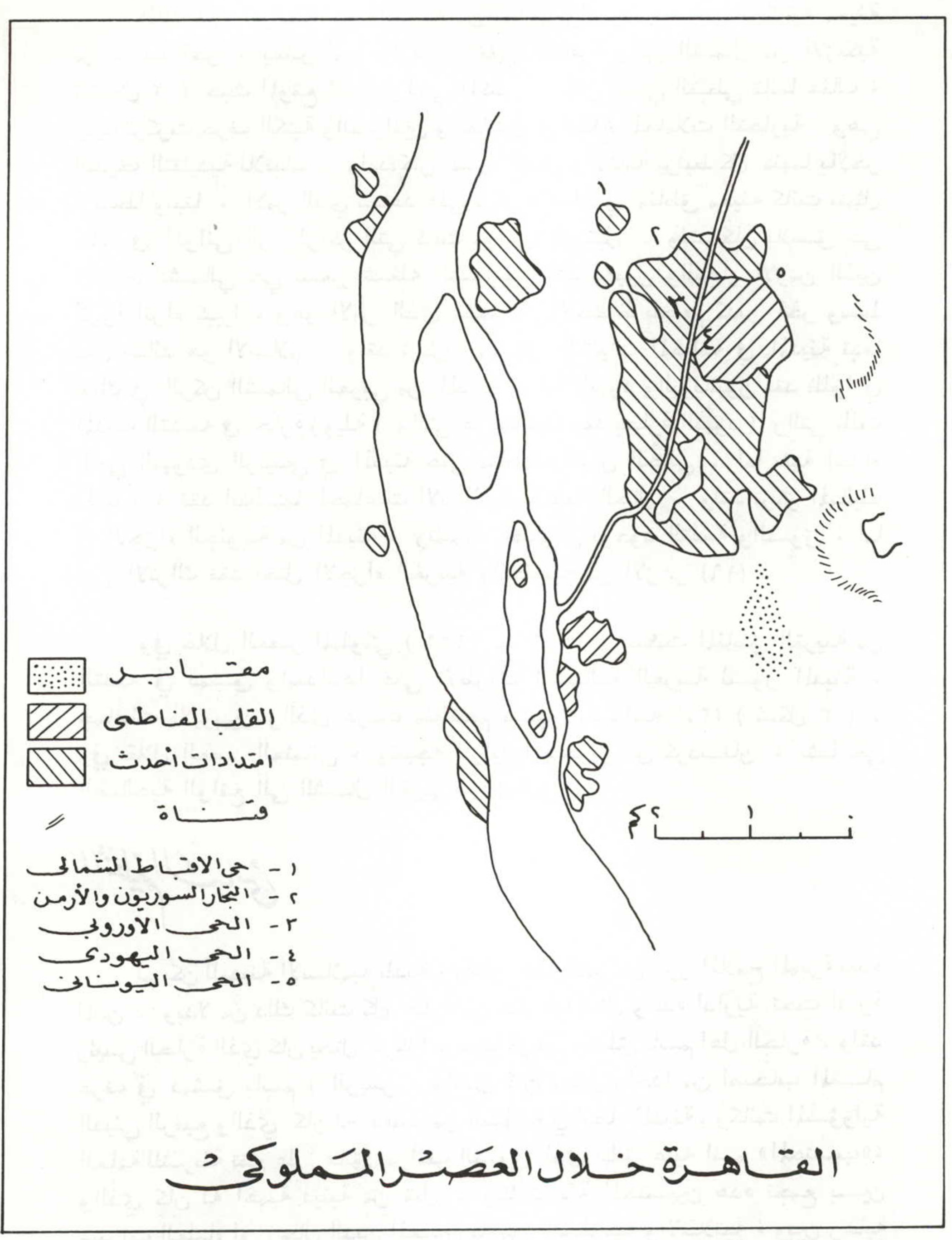
ومن أهم التطورات التي احتلت مكانها في المدن الاسلامية ظهور التنظيمات أو الاتحادات العمالية التي اختصت كل منها بحرفة معينة ، وكانت مثل هذه التنظيمات سائدة قبل فتح العرب لهذه المدن ، فهي موجودة من قبل في كل من القاهرة ودمشق وبغداد مثــلا ، ويرجع وجودها هنــا الى فترات الرومان والبيزانطيين ، ولقد حافظ العرب عليها بعد دخولهم الى هذه المدن . وتمثل تلك التنظيمات في الواقع انعكاسا للتنظيم المكاني للاجزاء المعمورة في المدينة ، فقد قامت الاحياء السكنية للجماعات الحرفية جنبا الى جنب مع السوق التجاري لانتاج هذه الحرف . ومن ثم اختلفت الاحياء السكنية بعضها عن بعض تبعا لاختلاف الحرف السائدة في كل منها (١٨) . وهكذا فان تنظيم الحياة الحضرية بهذه المدن ارتبط في جزء منه بوجود الروابط المهنية ، ومثل هذه الروابط هي التي استطاعت أن تترك بصماتها المميزة على الانماط المكانية للمدن الاسلامية .

كذلك فان الرابطة بين الحرفة من جانب وأصول وعناصر سكانية معينة من جانب آخر ، يعتبر أمرا واردا . ففي القاهرة والى الشمال من الازبكية (شكل ٢) حيث الموقع السابق لحي المكس ، كان الحي القبطي قائما هناك ، وفيه تركزت حرف الكتبة والصرافين والعاملين في قطاع المعاملات التجارية ، وهي الحرف التقليدية للاقباط . ولقد كان مكان العمل والاقامة يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا ، الامر الذي ساعد على تركز الاقباط في مناطق معينة كانت تتمثل عادة في الموانىء أو المراكز التي كانت موانىء من قبل . ولقد كان يلاصق حي الاقباط الشمالي حي صغير شغله السوريون المسيحيون والتجار الارمن الذين أثروا اثراء كبيرا ، وهو الامر الذي مكنهم من الاحتفاظ بدينهم كدين آخر وسط دين سائد هو الاسلام . ولقد تركزت مساكن الاقليات المختلفة في المدينة تبعا لذلك في الركن الشمالي الغربي من المدينة . أما اليهود واليونانيون فقد ظلوا في المدينة القديمة في حارة زويلة (والتي عرفت فيما بعد بحارة اليهود) والتي ظلت الحي اليهودي الرئيسي في المدينة حتى منتصف القرن الحالي . أما بقية اجزاء المدينة ، فقد انتظمتها الجماعات الاسلامية بطبيعة الحال . ولقد تركز المماليك في الاجزاء الجنوبية من المدينة ، وتميزت احياؤهم بوجود القلعة والسوق ، أما حي الاتراك فقد احتل الاجزاء الغربية والجنوبية من الازهر (١٩) .

وفي خلال العصر المملوكي (١٢٥٩ ــ ١٥١٦) سكنت المناطق القريبة من القلعة في دمشق وامتدادها حتى الاطراف الشمالية الغربية لسور المدينة ، جماعات الايوبيين والذي عرفت منطقتهم بسوق سرواجه (٢٠) (شكل ٣) . وفي خلال العصر العثماني ، ونتيجة لتزايد المهاجرين من كردستان ، نشأ حي الصالحية الواقع الى الشمال الغربي من دمشق .

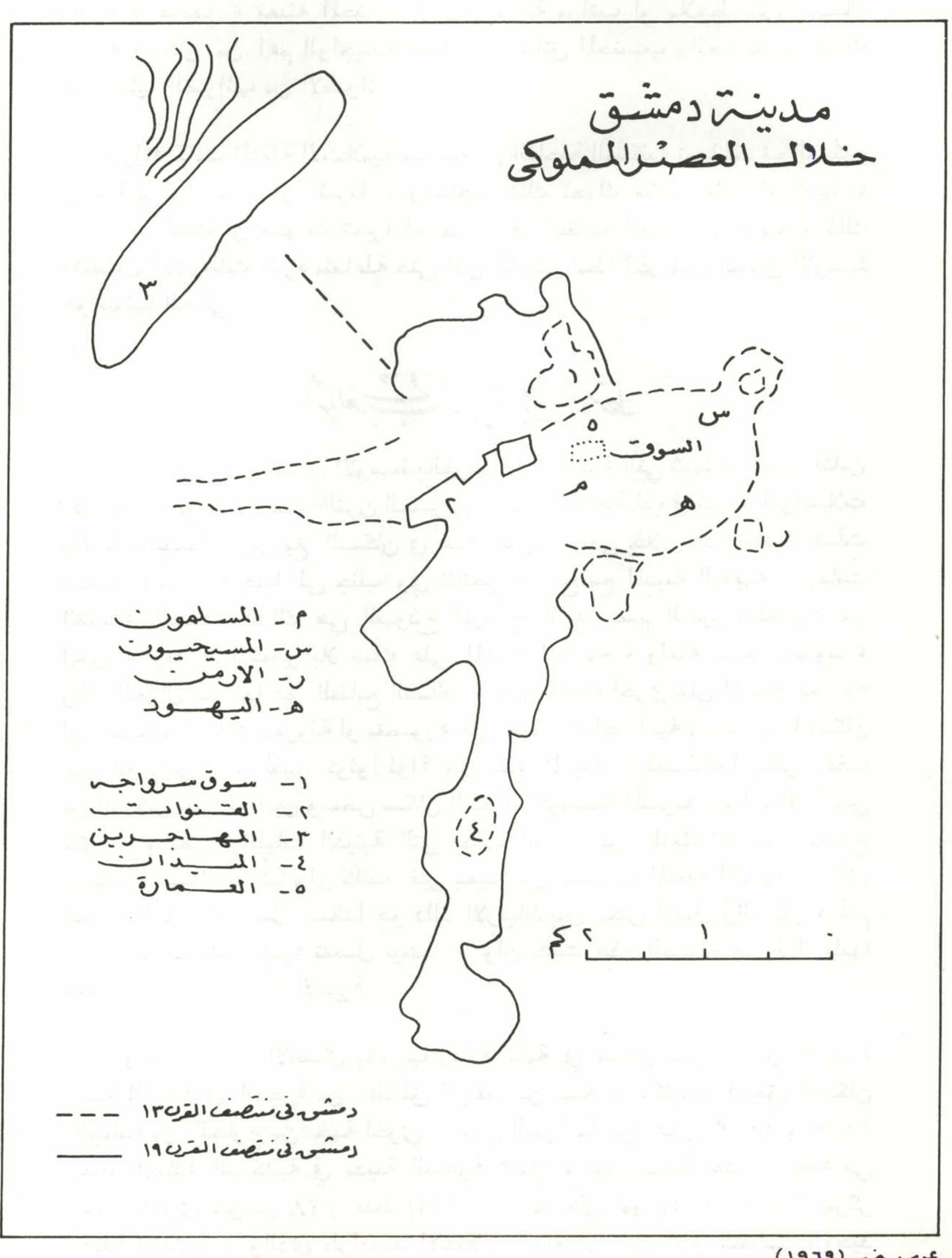
التنظيم السياسي

لم يكن للمدينة الاسلامية بلدية ، وكان هذا الامر من أبرز الملامح المميزة لهذه المدن . وبدلا من ذلك كانت كل حارة من حاراتها تمثل وحدة ادارية تحت ادارة رئيس الحارة الذي كان يحتل مركزا مرموقا كزعيم وناطق باسم أهل الحارة . ولقد عرف في دمشق باسم (الريس) والذي كان يعتبر واحدا من أصحاب المقام الديني الرفيع والذي كان له بعضا من السلطة في أنحاء المدينة. وكانت المسؤولية العامة للشرطة تقع على عاتق مراقب السوق الذي أطلق عليه اسم «المحتسب»، والذي كان له أهمية دينية من قبل . وكانت فئة المحتسبين هذه تجمع بين مميزات العلماء أو رجال الدين المعنيين بالامور السلوكية والاخلاقية ، وبين رعاية الاموال الخاصة بالدولة . ومن أجل مساعدة المحتسب ، كانت لكل حرفة أو



عن: أبولغد (١٩٧١)

شكل (٢)



عن : خير (١٩٦٩)

شكل (٣)

تجارة « عريف » يعينه المحتسب ليكون بمثابة مراقب أو ملاحظ على عمال حرفته ، وكان من أهم الواجبات الملقاة على عاتق المحتسب والعريف تبعا لذلك هو جباية الضرائب من الاسواق .

ولقد كانت المدينة الاسلامية مقسمة من الناحية السكنية تبعا لحرف السكان وأصولهم كما سبق ان أشرنا ، وصاحب ذلك تحرك مكاني قليل لسكانها ، ولكنها ما لبثت أن شهدت تغيرا له مغزاه في أعقاب اتصالها بالغرب ، ذلك الاتصال الذي ظلت آثاره متفاعلة حتى الآن لتعطي نمطا آخر لمدن الشرق الاوسط هو نمطها الحالي .

أثر الغرب في مدن الشرق الأوسط

ظهر تأثر مدن الشرق الاوسط بالغرب خلال الفترة التي شملت القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبدايةالقرن العشرين. ويمكن ملاحظةذلك في شبكة المواصلات والانماط السكنية وتوزيع السكان في هذه المدن . ففي خلال هذه الفترة نشأت المدينة المستعمرة جنبا الى جنب وفي تناقض واضح مع المدينة القديمة . وكانت القاعدة السائدة آنذاك هي النموذج المزدوج الذي يضم القديم والحديث من المدن ، وقد طرأ تغيير بلا شك على المدينة القديمة ، ولكنه تغيير محدود ، وظل انعزال سكانها هو الطابع السائد ، ومن ناحية أخرى فان المدينة الجديدة أو المستعمرة كانت معزولة أو مقصورة على جماعات اجتماعية معينة مثل السكان غير الوطنيين وهم الذين كونوا نواة مثل هذه المدينة ، فقد كانوا يمثلون نخبة من السكان غير الوطنين وبعض سكان الطبقة المتوسطة المقترنة بالنظام السياسي ككل ، وبعض الاقليات الدينية التي بدأت النزوح من المدينة القديمة لتصبح مجموعة مستقلة بذاتها وان كانت غير بعيدة عن مشارف المدينة القديمة . ولكن العامل الهام الذي ظل سائدا هو ذلك الارتباط بين مكان العمل والسكن ، فلم تكن هناك مسافة كبيرة تفصل بينهما ، وان كانت هذه الحقيقة قد طرأ عليها تعديل طفيف في الآونة الاخيرة .

وقد نجم عن الاتصال بالغرب زيادة عامة في سكان مدن الشرق الاوسط نتيجة للزيادة في الهجرة من المناطق الريفية من جهة ، وكنتيجة لتدفق السكان الاجانب من الخارج من جهة أخرى . ففي الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و ١٨٩٧ بلغت الزيادة السكانية في مدينة القاهرة ٥٢٪ ، بينما بلغت هذه الزيادة في المدن الاخرى حوالي ٣٨٪ فقط (٢١) . وربما كان نمو مدينة القاهرة كمركز جديدة للادارة ، والذي طرأ بعد الاحتلال البريطاني لمصر هو التفسير الوحيد لهذه الزيادة . وقد كان نمو الاجهزة الادارية أمرا حتميا بسبب العديد من

الخدمات التي توفرت ، ومن ثم جذبت اليها سكان القرى المجاورة لهذه المدينة ومن مصر العليا (الصعيد) ، فقد ازداد عدد العاملين في القطاعات الحكومية وعمال المباني والنقل والتجار وغيرهم بدرجة كبيرة ، وثمة عامل آخر هام كذلك وهو تدفق الاجانب عليها بشكل واضح . ولقد تضاعف عدد الرعايا العثمانيين (من السوريين والارمن وغيرهم) واليونانيين والايطاليين في القاهرة في الفترة ما بين ١٨٩٧ ــ ١٩٠٧ من ٣١٫٥٤٣ نسمة الى ٦٢٫٠٠٥ نسمة (٢٢) . كما ازداد عدد سكان المدينة من أكثر من ٤٠٠ الف نسمة عام ١٨٨٢ الى ما يقرب من ٦٠٠ الف نسمة عند نهاية القرن التاسع عشر . وقد جاءت هذه الزيادة نتيجة للهجرة الى المدينة (٢٣) . أما بغداد فقد بلغ عدد سكانها حوالي ٦٠ الف نسمة في عام ١٨٥٣ (٢٤) .

ولقد كـــان من أهـــم نتائج الاتصال بالغـــرب اختفـــاء طوائـــف التجار والصناع التي كانت تتميز بوجودها تلك المدن خلال العصور الوسطى . ورغم أن هذه الطوائف ظلت موجودة حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، الا أنها ما لبثت أن اختفت تماما نتيجة لتدفق البضائع الاوروبية والسكان الاوروبيين واستقرارهم في المدن كالقاهرة ودمشق وبغداد (٢٥) . ولقد أخذ نظـــام « الحارات » في الاضمحلال أيضا نتيجة لهذا الاتصـــــال ، ولقد أدى تأثير الاوروبيين الى استحداث أحياء جديدة وتحديث بعض الاحياء القديمة وان كانت أحياء المدينة قد ظلت قائمة بصورة أقل حدة ووضوح . وسوف نتناول فيما يلي دراسة للتغيرات التي طرأت على ثلاث مدن رئيسية من مدن الشرق الاوسط خلال هذه الفترة .

القاهـــــرة :

قسمت القاهرة خلال زمن الاحتلال الفرنسي (١٧٩٨) الى ٥٣ حارة . فقد أعاد الفرنسيون تنظيم التقسيم الاداري للقاهرة بتوحيد الحارات التي كانت قائمة آنذاك الى ثماني مناطق ادارية كبيرة أطلق على كل منها اصطلاح (الثمن «١/٨») وقد شمل التقسيم الذي احدثه الفرنسيون بعض التعديلات في الحدود الادارية منذ أن تم تغيير نظام شوارع المدينة لاغراض عسكرية بحتة ، ولم يطرأ على الخريطة التي رسمها علماء الحملة الفرنسية التي صاحبت نابليون (١٧٩٨) الا تغير طفيف عن القاهرة في القرن الخامس عشر . فقد كانت تغطي خمسة أميال مربعة فقط عند مركزها (٢٦) ، وقد أزال نابليون البوابات التي كانت تفصل بين الاحياء المختلفة ، ومع ذلك فقد أعيد بناؤها بعد انتهاء الاحتلال الفرنسي .

ولقد نشأت قطاعات جديدة من العمران خارج أسوار المدينة ، وفي مصر خلال حكم محمـــد علي (١٨٠٥ ــ ١٨٤٨) ، وبعيد الحـــرب العالمية الاولى

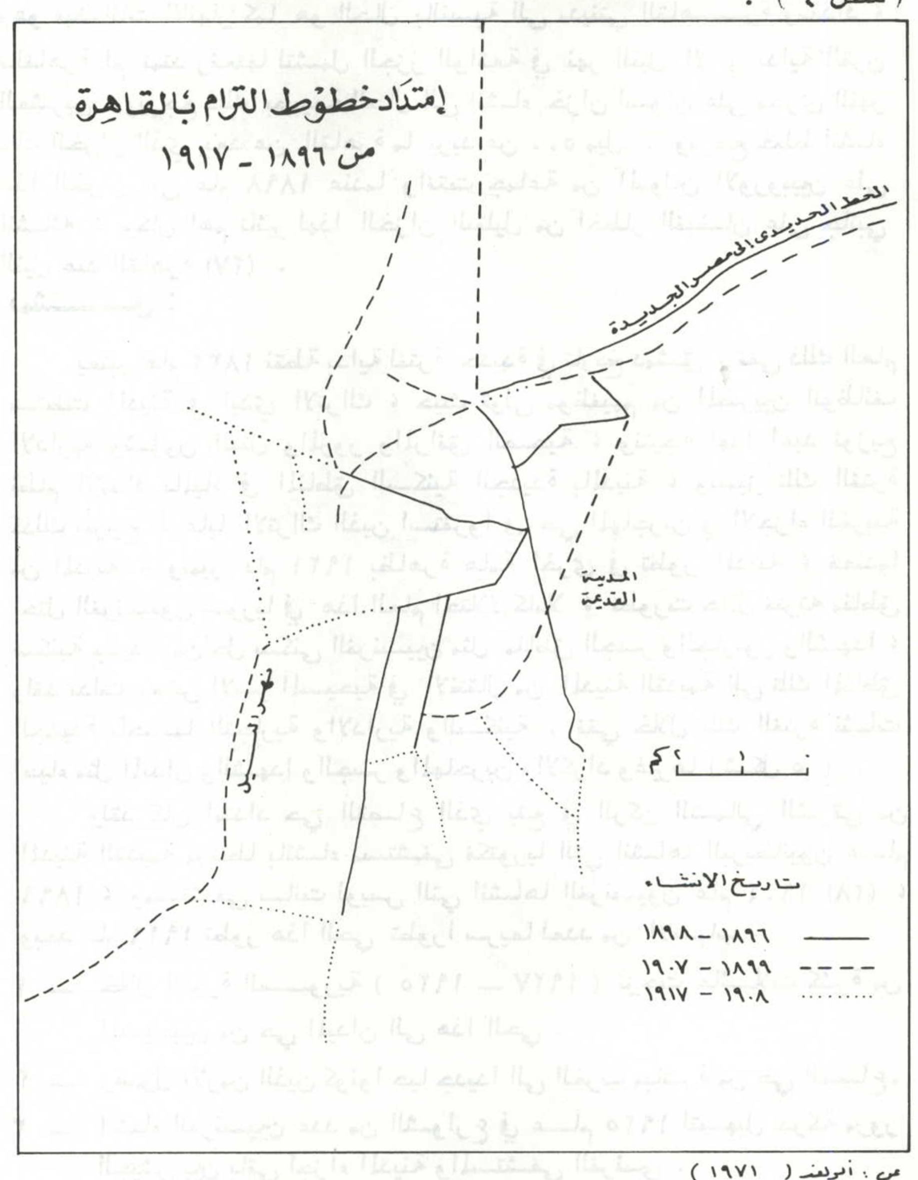
(خلال فترة الانتداب) انعكس التأثير الاوروبي مباشرة على اتساع الشوارع ونظام المباني والمنشآت ، وكلما امتدت هذه القطاعات الحديثة بسرعة ، كلما ازدهرت المناطق السكنية وازدادت عملية التحضر . ولقد امتدت القاهرة بدرجة مذهلة من القلعة (التي تعتبر قاعدة الامتداد) واتجهت غربا عبر نهر النيل ، وشمالا بشرق لتضم الاحياء السكنية في مصر الجديدة (هليوبوليس) ، كما استطاع التأثير الاوروبي أن يستحدث بعض الاحياء الصناعية ، وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت القاهرة تتكون من موطنين متميزين طبيعيا وهما القاهرة القديمة، والقاهرة الحديثة . وقد كان لسقوط القاهرة في أيدي البريطانيين عام ١٨٨٢ بداية لمرحلة جديدة من تاريخ القاهرة ، تلك المرحلة التي تميزت بالتطور الاخير للمدينة المستعمرة (والتي كانت مكتفية ذاتيا) في الجزء الغربي ، وبتطور مدينة الطبقة المتوسطة من المصريين في الشمال وبالتحديد في شمال وغرب القاهرة .

وكنتيجة لزيادة السكان ، فقد ازدادت مساحة القاهرة خلال الاحتلال البريطاني ، وقد امتدت المنطقة التجارية من حي الموسكي (شرق حديقة الازبكية) الى المنطقة المجاورة وهي ميدان الاوبرا (على الحدود الغربية) . وقد تداول التجارة الاوروبية القديمة كل من اليونانيين والارمن والتجار اليهود الذين كانوا يمدون السكان الوطنيين من أهل البلاد بالبضائع الغربية الرخيصة، وقد ساعد ارتباط التجار المسيحيين الاثرياء مع المهاجرين الاوروبيين الذين وصلوا حديثا آنذاك في خلق منطقة جديدة للطبقة المتوسطة على امتداد الطرق التي انشأها الخديوي اسماعيل (١٨٦١ — ١٨٧٩) ، وقد كانت هذه المنطقة مرتبطة ارتباطا مباشرا بالحي التجاري الناشىء حديثا والقريب من حديقة الازبكية .

ولقد بلغ عدد سكان مدينة القاهرة في نهاية القرن التاسع عشر حوالي ٦٠٠ الف نسمة وأصبحت منقسمة الى مجتمعين متميزين كما أسلفنا : المدينة القديمة وهي التي ظلت على ما هي عليه منذ العصور الوسطى ولم يطرأ عليها الا تغيير طفيف ، والمدينة الجديدة ذات الطراز الاوروبي . ولقد امتدت هذه الاخيرة موازية للمدينة القديمة في الغرب ، واخذت تحيط بها كذلك من الشمال ، وتوقف امتداد كلتا المدينتين عند نهاية القرن التاسع عشر بتأثير شبكة المواصلات.

وفي الفترة من ١٨٩٦ الى ١٩١٦ نشأ نظام عام للنقل ربط الاجزاء البعيدة من مدينة القاهرة بوسطها ، وما زالت المدينة تعتمد على هذا النظام حتى الآن اعتمادا كبيرا ، وفي عام ١٩١١ بلغ طول شبكة الترام ٥٨ كيلومترا تسير عليها نحو ٤٧٣ مركبة من مركبات الترام ، وكانت تخدم ٥٥٧٠٠٠٠٠ راكب سنويا ، وفي الفترة من ١٩٠٨ الى ١٩١٧ تم اضافة ١٣ خط جديد من خطوط الترام ، أما

نظام النقل العام الذي نشأ عام ١٩١٧ فقد كان الاساس الذي ساعد على امتداد مدينة القاهرة وتطورها خلال القرن العشرين ، وفي عام ١٩٠٢ بدأ تنفيذ خطط لتشـــييد عدد من الكبـــاري والجسور واستكملـــت بعد خمس سنوات تالية (شكل ٤) .



عن : أبولغد (١٩٧١)

شكل (٤)

وثمة عامل آخر هام كان عقبة كبيرة للامتداد المكاني لمدن الشرق الاوسط وهو فيضانات الانهار كما هو الحال بالنسبة الى مدينتي القاهـــرة وبغداد ، فالقاهرة لم تمتد رقعتها لتشمل الجزر الواقعة في نهر النيل الا في بداية القرن العشرين ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى انشاء خزان أسوان على مجرى النهر ذلك الخزان الذي يبعد عن القاهرة ما يزيد عن ٥٠٠ ميل . وترجع خطط انشاء هذا الخزان الى عام ١٨٩٨ عندما وافقت جماعة من المولين الاوروبيين على انشائه ، وكان أهم تأثير لهذا الخزان التقليل من أخطار الفيضان على جانبي النيل عند القاهرة (٢٧) .

دمشـــــق :

يعتبر عام ١٨٣٢ نقطة بداية لفترة جديدة في تاريخ دمشق . ففي ذلك العام سقطت المدينة في أيدي الاتراك ، حيث تولى موظفيهم من المصريين الوظائف الادارية وشؤون النقل والمرور والمرافق الصحية ، ونتيجة لهذا أعيد توزيع نظام الامداد بالمياه في المناطق السكنية الجديدة بالمدينة ، وتتميز تلك الفترة كذلك بنزوح الرعايا الاتراك الذين استقروا في حي المهاجرين في الاجزاء الغربية من المدينة ، وتميز عام ١٩٢١ بظاهرة هامة أخرى في تطور المدينة ، فعندما احتل الفرنسيون سوريا في هذا العام احتلالا كاملا ، تطورت خلال فترته مناطق سكنية جديدة من أجل سكنى الفرنسيين مثل مناطق الجسر والجارنوز والشهدا ، ولقد بدأت بعض الاسر المسيحية في الانتقال من المدينة القديمة الى تلك المناطق الجديدة بأحيائها التجارية والادارية والسكنية . ففي خلال تلك الفترة نشأت أحياء مثل الميدان والشهدا والجسر والمهاجرين والاكراد وغيرها (شكل ٥) .

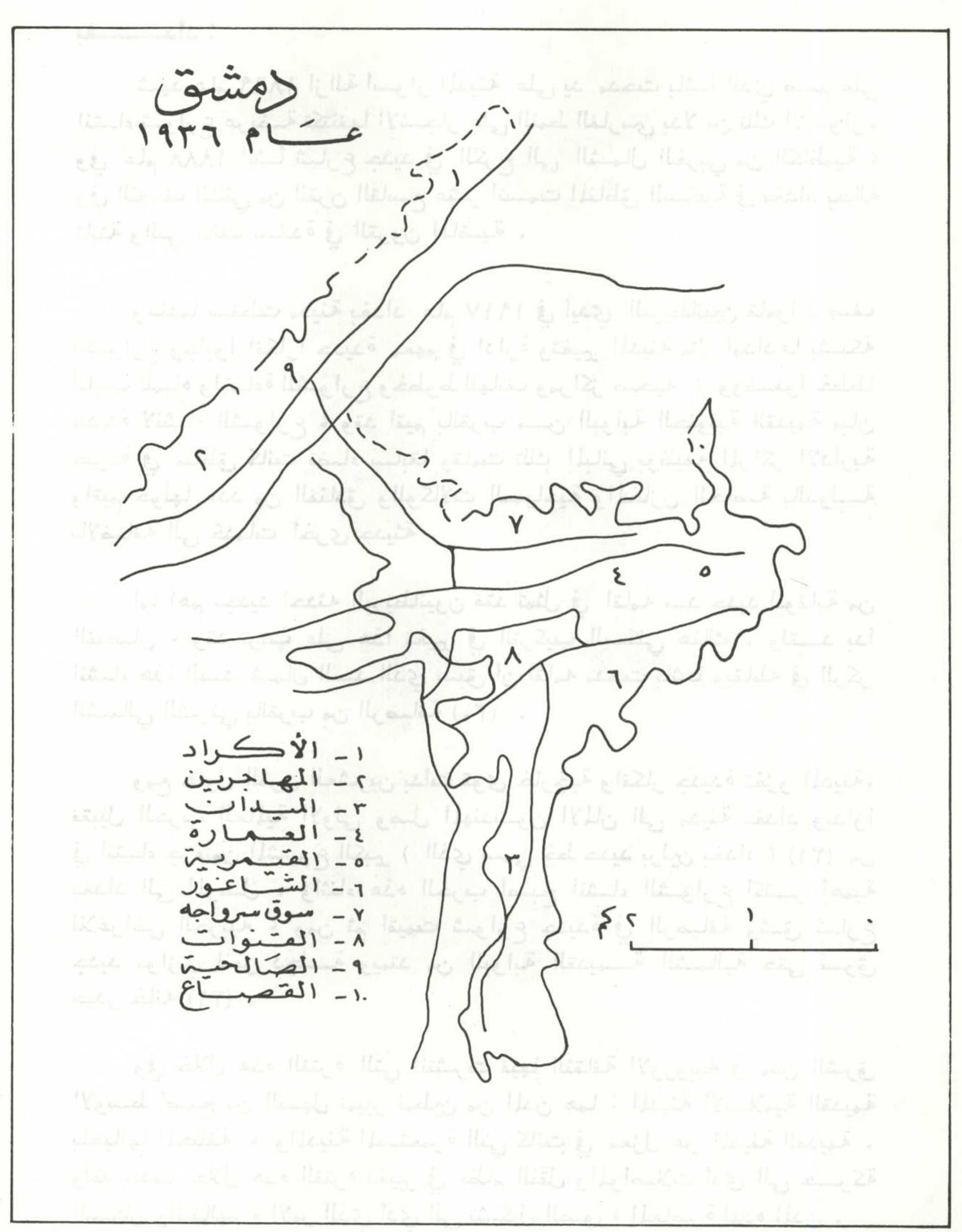
ولقد كان امتداد حي القصاع الذي يقع في الركن الشمالي الشرقي من المدينة القديمة مرتبطا بانشاء مستشفى فكتوريا التي أنشأها البريطانيون عـــام ١٨٩٦ ، ومستشفى سانت لويس التي أنشأها الفرنسيون عام ١٩٠٤ (٢٨) ، وبعد عام ١٩١٩ تطور هذا الحي تطورا سريعا لعدد من الاسباب :

١ ــ خلال الثورة السورية (١٩٢٥ ــ ١٩٢٧) نزحت عائــلات كثيرة من المسيحيين من حي الميدان الى هذا الحي .

٢ ــ وصول الارمن الذين كونوا حيا جديدا الى الغرب مباشرة من حي القصاع.

٣ ــ انشاء الفرنسيين عدد من الشوارع في عـــام ١٩٢٥ لتسهيل حركة مرور الجيش بين باقي أجزاء المدينة والمستشفى الفرنسي .

٤ ــ انشاء خط ترام في عـــام ١٩٣١ ربط بـــين هذا الحي وقلــب العاصمة دمشق (٢٩) .



عن : خنير (١٩٦٩)

شكل (٥)

بغــــداد :

شهد عام ١٨٦٩ ازالة أسوار المدينة على يد مدحت باشا الذي صمم على انشاء شوارع عريضة تكتنفها الاشجار على النمط الفارسي بدلا من تلك الاسوار. وفي عام ١٨٨٨ أنشأ شارع جديد في الكرخ الى الشمال الغربي من الكاظمية ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتسمت المناطق السكنية في بغداد بحالة ثابتة والتي كانت سائدة في القرون الماضية .

وعندما سقطت مدينة بغداد عام ١٩١٧ في أيدي البريطانيين قاموا برصف الشوارع وجلبوا افكارا جديدة معهم في ادارة وتغيير المدينة مثل امدادها بشبكة انابيب للمياه واضاءة للشوارع وخطوط للهاتف ومراكز صحية ، ووضعوا خططا جديدة لانشاء الشوارع ، وقد أقيم بالقرب من البوابة الجنوبية القديمة مبان جديدة في مناطق كانت تضاء سابقا وقامت تلك المباني بوظيفة المراكز الادارية واقيم حولها عدد من الفنادق والوكالات السياحية والمخازن الخاصة بالدولة بالاضافة الى خدمات أخرى حديثة .

اما أهم تجديد احدثه البريطانيون فقد تمثل في اقامة سد جديد للوقاية من الفيضان ، وقد ترتب على هذا تغيير في التركيب السكني هناك . ولقد بدأ انشاء هذا السد شمال السد الذي سبق أن أقامه مدحت باشا ويقابله في الركن الشمالي الشرقي بالقرب من الرصافة (٣٠) .

ومع حلول القرن العشرين بدأت قوى خارجية وافكار جديدة تغزو المدينة، فقبيل الحرب العالمية الاولى وصل المهندسون الالمان الى مدينة بغداد وبدأوا في انشاء جزء من المشروع الكبير (الذي سمي خط حديد برلين بغداد) (٣١) من بغداد الى الموصل . وأثناء هذه الحرب أصبح انشاء الشوارع أكثر أهمية للاغراض الحربية ، ومن ثم أقيمت شوارع جديدة في الرصافة وشق شارع جديد موازي لنهر دجلة ويمتد من البوابة القديمة الشمالية حتى سوق حيدر خانه (٣٢) .

وفي خلال هذه الفترة التي انتشرت فيها الثقافة الاوروبية في مدن الشرق الاوسط أصبح من السهل تمييز نمطين من المدن هما : المدينة الاسلامية القديمة باحيائها المختلفة ، والمدينة المستعمرة التي كانت في معزل عن المدينة القديمة . ولقد حدث خلال هذه الفترة تغيير في نظام النقل والمواصلات أدى الى حركة السكان وانتقالهم ، الامر الذي أدى الى تشكيل الصورة المعاصرة لهذه المدن .

المدن المعاصرة في الشرق الأوسط

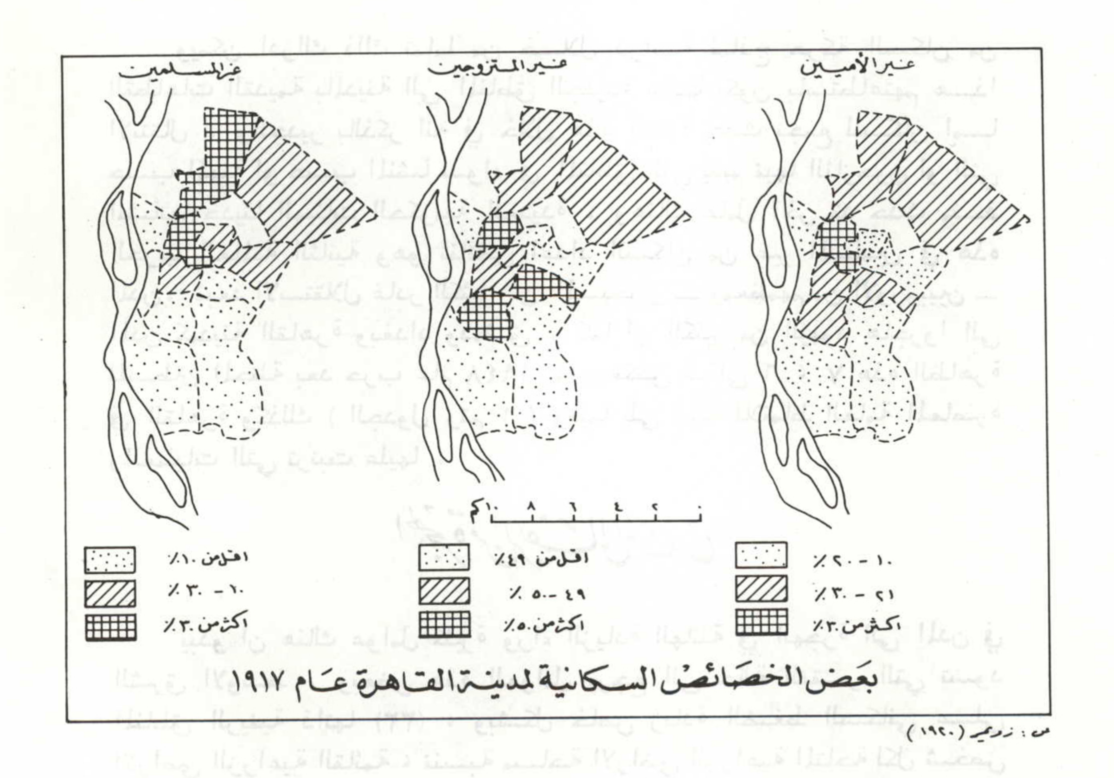
تدين المدن الحالية في الشرق الاوسط الى ما تم انجازه في الفترة السابقة، نتيجة لعدة أمور ، ولكن ثلاثة منها تعتبر من الاهمية بمكان : فقد أصبحت هناك هجرة جماعية أكثر من اي وقت مضى من الريف اليها ، ولقد أقام هؤلاء النازحين اما في مناطق خاصة بهم داخل المدينة او على اطرافها ، وهناك عملية انشاء الضواحي التي تقطنها الطبقات المتوسطة ، ولقد حركت هذه الضواحي السكان من القطاعات القديمة في المدينة الى الاجزاء الجديدة التي أقامها الاجانب من قبل في المدينة ، وأخيرا هناك مشروعات الاسكان التي تقوم بها الحكومات لتشييد عدد من المباني الحكومية في العواصم . وتتميز هذه الفترة عموما بتضييق الهوة تدريجيا وازالة العقبات التي تفصل بين المدينة القديمة التي أقيمت قبل وصول الاوروبيين في المنطقة والمدينة التي أقاموها خلال الفترة الثانية.

ويمكن ادراك ذلك تماما من خلال دراسة نماذج حركة السكان من القطاعات القديمة بالمدينة الى المناطق الجديدة عندما يكون باستطاعتهم هذا الانتقال . والجدير بالذكر أنه في خلال هذه الفترة حدث تجمع للسكان اما حسب المهنة أو حسب المنشأ سواء في المناطق التي يقيم فيها النازحون أو التي انشأتها حديثا الهيئات الحكومية العديدة . وهناك عامل آخر قد حدث منذ الحرب العالمية الثانية وهو تناقص اعداد السكان من غير المسلمين في هذه المدن. فبعد الاستقلال غادر الكثير من المسيحيين — ومعظمهم من الاوروبيين — المدن كمدينة القاهرة وبغداد ودمشق . كما أن الكثير من اليهود هاجروا الى فلسطين المحتلة بعد حرب عام ١٩٤٨ . ويعكس شكلي ٦ ، ٧ هذه الظاهرة في القاهرة وكذلك (الجدول رقم ١) وفيما يلي أمثلة للانماط العامة المعاصرة والعمليات التي ترتبت عليها .

الهجرة من الريف الى المدن

يبدو أن هناك عوامل كثيرة وراء الزيادة الهائلة في الهجرة الى المدن في الشرق الاوسط . وبعض هذه العوامل يرجع الى حالة الفقر التي تسود المناطق الريفية ذاتها (٣٣) ، وبشكل خاص زيادة الضغط السكاني على الاراضي الزراعية القائمة ، فنسبة مساحة الاراضي الزراعية المتاحة لكل شخص من العاملين في الزراعة بالمملكة العربية السعودية أقل من هكتار واحد (٣٤) ، ومعظم المناطق الريفية في الشرق الاوسط والدول العربية فقيرة في عدة مظاهر .

فهناك فرص العمل المحدودة والبطالة الشديدة مثلا (٣٥) . والمدن بالاضافة الى أنها توفر الاعمال وترتفع فيها الاجور ، تتركز بها الخدمات العديدة مثل التعليم والصحة وأماكن الترفيه والاستجمام ، وكلها عوامل توفر نمطا جديدا تماما من الحياة . ولقد ساعدت التحسينات التي طرأت على المواصلات والنقل على ربط المدن بالمناطق الريفية وبالتالي سهلت الحركة (٣٦) . ونتيجة لظهور البترول ووفرته خاصة في المملكة العربية السعودية والدول الاخرى في الشرق الاوسط ، فقد ازدادت نسبة سكان المدن في المملكة . ففي خلال الثلاث والعشرين سنة الاخيرة ازدادت نسبتهم من ٩٪ عام ١٩٥٠ الى ١٦٪ عام ١٩٦٠ ثم الى ٢٥٪ عام ١٩٧٠ (الجدول ٢) (٣٧) .



بعض الخصائص السكانية لمدينة القاهرة عام ١٩١٧

من : زويمر (١٩٢٠)

شكل (٦)

ولقد كانت هناك بعض السياسات الحكومية وراء عملية التحضر وانتشارها في مدن الشرق الاوسط منها سياسة الاصلاح الزراعي التي ميزت هذه الفترة . وغالبا ما راعت قوانين الاصلاح الزراعي مناطق الحضر على حساب الريف وذلك خلافا للاهداف الرئيسية لها والتي تهدف الى تحسين حالة الفلاح من ناحية ملكية الارض ، وكذلك نظام الزراعة وشروط استئجار الاراضي (٣٨) . وحجم العملية الزراعية ، ولقد كانت عوامل جذب الفقراء من المهاجرين الريفيين الى المدن التي تتركز فيها المشروعات أكثر من غيرها بالطبع، وقد استمرت الهجرة الى المدن بخطى سريعة في بغداد مثلا وساعد على ذلك برامج الاسكان التي تم تخطيطها بعد ثورة ١٩٥٨ (٣٩) .

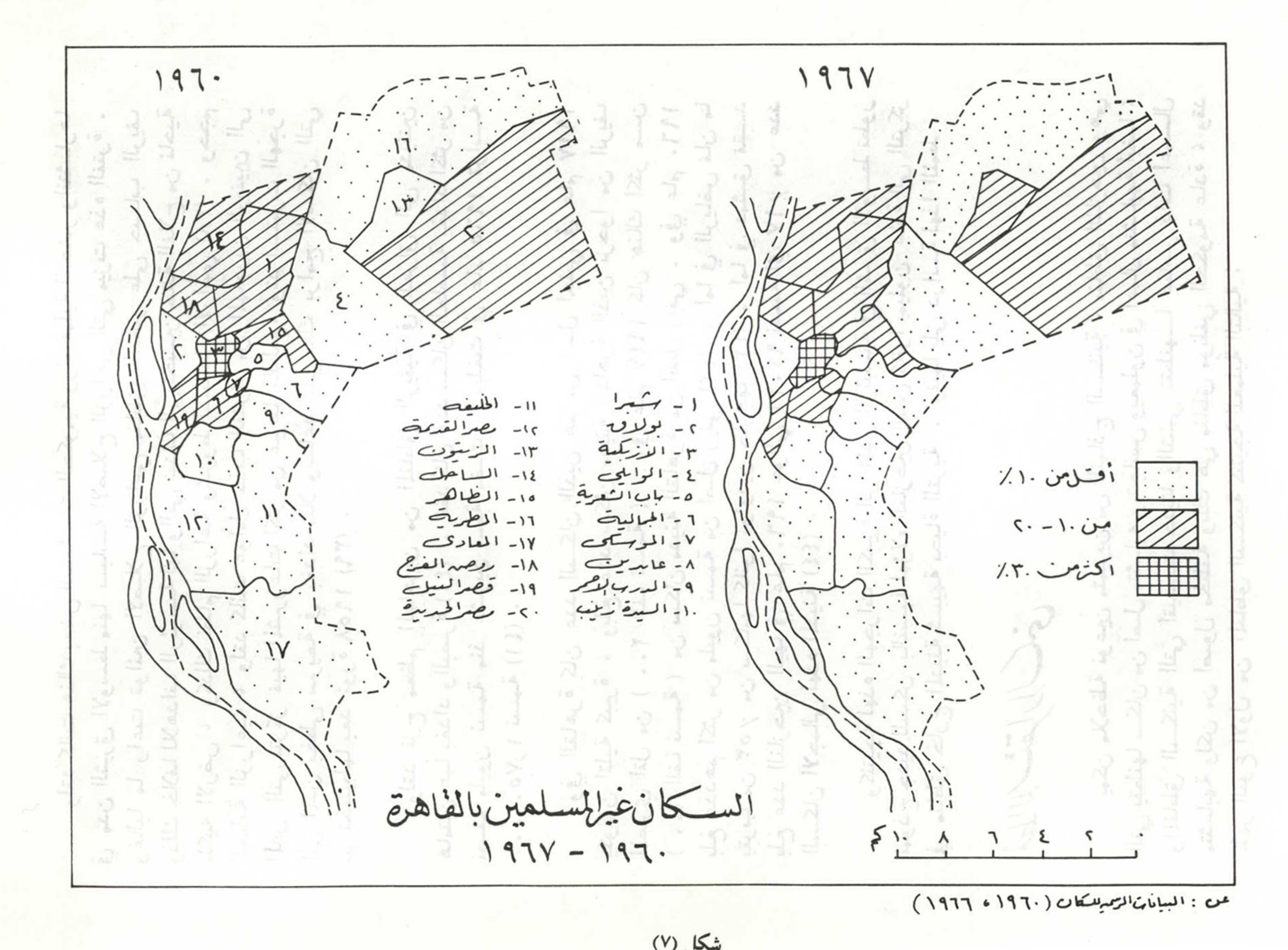
ولقد نزح معظم المهاجرين من المناطق الريفية في العراق الى مدينتين هامتين هما بغداد والبصرة (٤٠) . فقد كان عدد سكان العاصمة بغداد أكثر من نصف مليون نسمة منذ عشرين سنة مضت ، وبلغت في عام ١٩٦٥ قرابة ١٫٧٥٠٫٠٠٠ نسمة (٤١) .

وفي القاهرة كان عدد السكان الذين هم من أصل اجنبي في عام ١٩١٧ يكونون أقلية كبيرة ، وبلغ عدد سكان مدينة القاهرة الذين نزحوا من الريف المصري أقل من (٢٠٠ الف نسمة) . وفي عام ١٩٤٧ كان هناك أكثر من (٦٠٠ الف نسمة) من سكان مدينة القاهرة من أصل ريفي . وفي عام ١٩٦٠ بلغ عددهم أكثر من مليون نسمة من أصل ريفي (٤٢) . أما في الرياض فان ما يقرب من ٥٣٪ من سكانها كانوا مولودين خارجها (٤٣) . أما في دمشق فقد بلغ عدد النازحين اليها في عام ١٩٦٠ حوالي ٩٢٠٣١ نسمة اي ١٧٪ من عدد السكان الاجمالي لهذه المدينة (٤٤) .

وكنتيجة لهذه الهجرات الكبيرة الى المدن الرئيسية في الشرق الاوسط تطور نموذج جديد للسكن بالنسبة لهؤلاء النازحين الذين كانوا يميلون عادة الى التركز في مناطق خارج المدينة شبيهة بحياة القرية . وفيما يلي دراسة لهذا النمط .

نمط الاستقرار السكني

يمكن ملاحظة نوعين متميزين من النماذج السكنية : مناطق النازحين وهي التي يقطنها سكان من أصل متشابه ومتجانس ويعملون في أعمال متشابهة ايضا ، والمناطق السكنية التي اقيمت حديثا والتي تقطنها عناصر ذات أعمال متشابهة ولكن من أصول مختلفة وتلك هي مناطق موظفي الحكومة عادة ، وقد ظهر النوع الاول من المناطق السكنية كنتيجة للعملية التالية :



عن : البيانات الرسمية للسكان (١٩٦٠، ١٩٦٦)

شكل (٧)

يقيم المهاجر او النازح أول علاقة له بالمدينة من خلال قريب أو صديق له من أصل ريفي ، ولكنه لا يلبث بعد فترة أن يستقل في سكن دائم له وحده ولكن بنفس المنطقة . وهذه العملية تؤدي الى تركيز المهاجرين أو النازحين من القرى في القطاعات المجاورة للمدينة (٤٥) .

ولا يقتصر استقرار هؤلاء المهاجرين بالقرب من نقطة المنشأ ، بل بالقرب من نقطة دخولهم الى المدينة . ففي القاهرة على سبيل المثال نجد أن المناطق الشمالية من المدينة يسكنها معظم النازحين من مصر السفلى (الدلتا) . وهم يسكنون بالقرب من محطة الحافلات (أمام مسجد الخازندار) وجنوب وسط المدينة حيث توجد مناطق يسكنها عادة معظم القادمين من مصر العليا (الصعيد) . وهناك اختلافات في المهنة ، فالنازحون من مصر العليا يعملون أساسا في الاعمال المنزلية والخدمات الاخرى التي تستلزم عمالا مهرة ، أما النازحون من مصر السفلى فيختلفون عن هؤلاء وقليل منهم هم العاملون في الاعمال المنزلية (٤٦) .

وفي العراق يميل الاكراد النازحون من الشمال الشرقي من العراق الى الاستقرار في أحياء معينة في الاجزاء القديمة من مدينة بغداد (٤٧) . ويستقر الكثير من المهاجرين الريفيين في مناطق معينة وهي المناطق التي تسكنها عناصر سكانية ذات أصول ريفية . وهكذا نجد أن هناك تركز للسكان في شكل تجمعات وفقا لاصولهم الاقليمية ، وينعكس ذلك النمط على بعض الاحياء والتي عادة ما تحمل أسماء القرى التي هاجروا منها . فللدوريين حي يوجد على الضفة الغربية لنهر دجلة ويقع في ضواحي الكرخ ، هو اسم لقبيلة توجد في الصحراء الغربية للعراق ، كما أن الكبيسات حي يوجد على أطراف الرصافة وهو الآخر اسم لقبيلة تنتشر قريبة من الحلة (وهي مدينة على الفرات)، كما أن حي الهيتاويين يمثل تجمع المهاجرين من مدينة هيت (٤٨) .

وفي دمشق نجد أن حي الميدان في الاجزاء الجنوبية من المدينة يمثل منطقة تجمع للمهاجرين المسلمين النازحين من حماه شمال العاصمة وبه منطقة النعير التي يقطنها اناس وفدوا من منطقة تحمل ذات الاسم في أقليم حماة ، كما يسكنها أيضا نازحون من قرية السخنة في أقليم حمص ، وحي القصاع من ناحية أخرى هو في الغالب نهاية للنازحين المسيحيين الذين وفدوا من قرى القلمون . وهناك أيضا نموذج للتجمع في القصاع يرجع أصلا الى منطقة أخرى ، فحي الدراذة جنوب المستشفى البريطاني يقطنه ناحزون وفدوا من قرية دير عطية (٤٩) .

ويسكن معظم الجزء الجنوبي من مدينة الرياض سكان من أصل قبلي ، وفي بعض المناطق من المدينة القديمة توجد منطقة يسكنها القصابون ومعظم

المشتغلين بهذه الحرفة أناس وفدوا من قرية الحريق ، غير أنه في مناطق أخرى من المدينة نجد قطاعا بأكمله يسكنه العمال المهاجرون من اليمن ، كما يقطن الاجزاء الشرقية من المدينة نازحون من منطقة القصيم الى الشمال من الرياض (٥٠) .

وسواء كان في بغداد أو القاهرة أو دمشق أو في الرياض ، نجد أن الطابع المميز هو النماذج السكنية المتشابهة . والاحياء السكنية الجديدة تسكنها مهن معينة ، وهذه الاحياء تسكنها من ناحية ثانية أعضاء لجمعيات تعاونية للاسكان خاصة . ويتكون أعضاء هذه الجمعيات من افراد ذات مهن معينة تعمل في الادارات الحكومية ، فهي تشمل ضباط الجيش والمحامين والاطباء والمهندسين وضباط الشرطة واعضاء في وزارات ومؤسسات معينة. وهذه المناطق السكنية تسمى « مدن » على اسم الجمعيات التي تنتمي اليها هذه الفئات المهنية المختلفة ، ففي بغداد مثلا نجد مدينة الضباط ومدينة الشرطة ومدينة المهندسين (٥١) ، كما أن مدينة الرياض الجديدة قد تأسست في الخمسينات تقريبا لسكن الموظفين الحكوميين الذين نقلوا من جدة على الساحل الغربي بعد أن أصبحت الرياض العاصمة الرسمية للمملكة العربية السعودية (٥٢) . ويمكن أن يقال نفس الشيء عن مصر الجديدة التي أنشئت أصلا في عام ١٩٠٧ لسكنى عائلات الموظفين الحكوميين ، وكان عدد هذه العائلات حوالي ٤٠٠ عائلة ، ولم تكن تبتعد عن القاهرة بأكثر من سبعة أميال ونصف الميل ، وفي الوقت الحاضر تبلغ نسبة السكان فيها والذين يعملون في وظائف حكومية واعمال تجارية بالقاهرة حوالي ٨٤٪ (٥٣) .

ومثل هذه المناطق السكنية نشأت بتأثير التطور السريع الذي طرأ على الطبقات المهنية المتوسطة في تلك المدن العواصم حيث تزداد فيها الاعمال البيروقراطية عاما بعد آخر . وحتى فترة قريبة جدا كانت هذه المناطق تضم في الغالب المباني الخاصة بالمهنيين بالاضافة الى مبان تجارية قليلة وبعض الخدمات الاخرى . ولقد أقبل رجال الاعمال عليها ومدوا خدماتهم الى تلك المناطق وان كان معظم السكان فيها ما زال يبحث عن مزيد من الخدمات والاعمال في الاجزاء القديمة من المدينة (٤٤) . ورغم هذا هناك مناطق سكنية في الاجزاء القديمة من المدينة والجديدة أيضا تسكنها جماعات وأسر من أصول ومهن مختلطة .

حركة السكــان :

أصبحت هناك حركة للسكان في الناحية الاقتصادية والناحية المكانية ، ومثل هذه الحركة تضيف أهمية متزايدة للاحياء الحديثة في القاهرة مثل الاهمية التي تحدثها التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وفي عام ١٩١٧ وطبقا لتقرير (أبو لغد) كان حوالي ١٥٪ من القوى العاملة في القاهرة مرتبط بالقطــاع الحديث من الاقتصاد المزدوج ، وان نسبة ذات أهمية كانت تتكون الى حد كبير من الاجانب أو بعض الاقليات المصرية (٥٥) . وفي عام ١٩٦٠ تغيرت هذه الحالة بدرجة كبيرة بحيث أصبح هناك ما يقرب من نصف القوى العاملة فــي المدينة يمكن وصفهم كمساهمين في القطاع الحديث . وأكثر من هذا فان معظم سكان القاهرة يقطنون أحياء من المدينة قد تطورت في القرن الحالي ، وفي عام ١٩٧٠ كانت نسبة السكان الذين يقطنون المنطقة القديمة اقل من ٢٥٪ من سكان القاهرة .

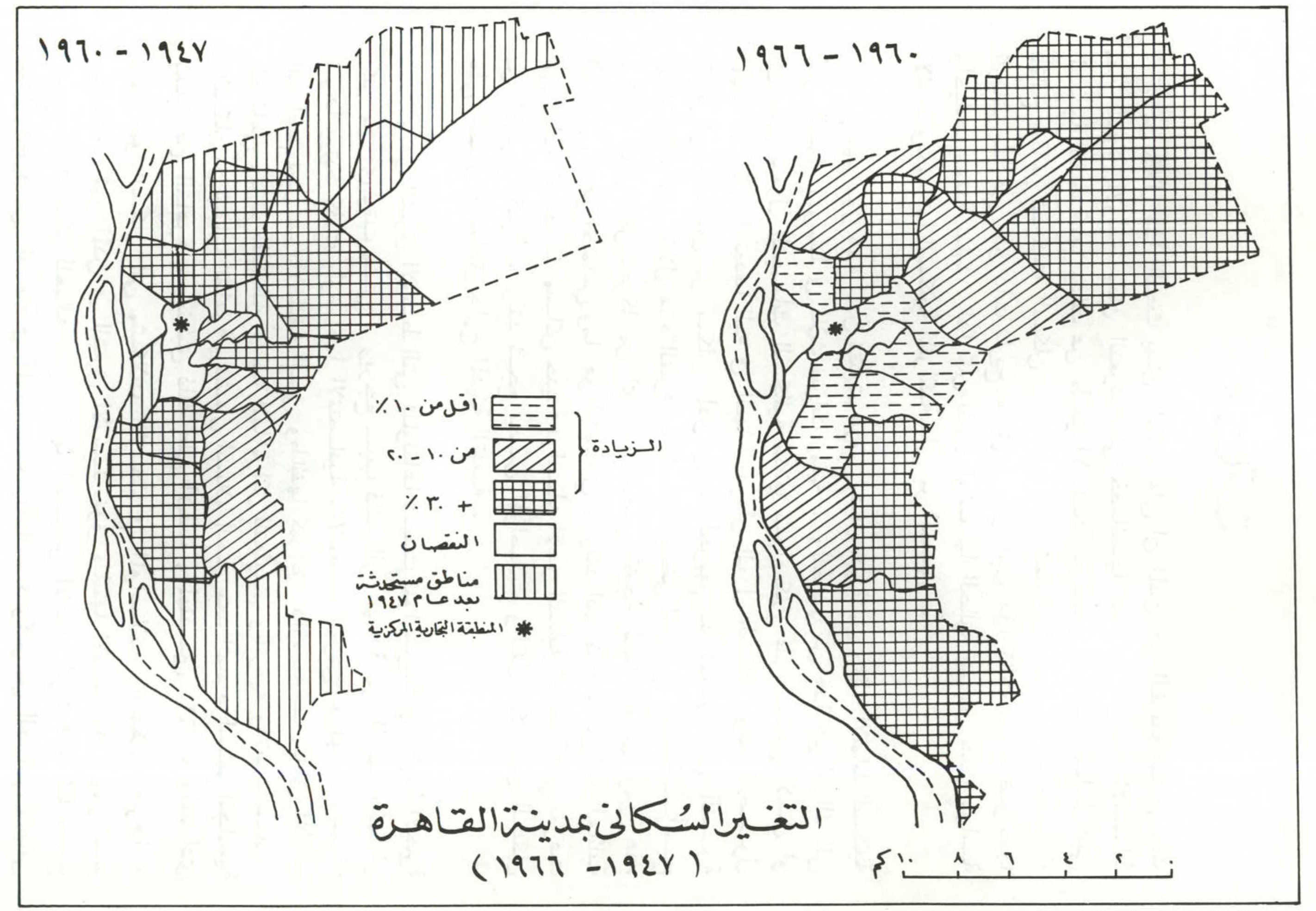
ويمكن ربط حركة السكان من القطاعات القديمة في المدينة الى الاحيــاء الجديدة نسبيا بهجرة الاجانب الذين كانوا يقطنون ما يسمى بالمدينة المستعمرة ، وترجع كذلك الى مشروعات الاسكان التي تخططها الحكومة ، ويحدث نقص السكان في المدينة القديمة كنتيجة للتجديد الحضري وشق الشوارع الجديدة ، فكثير من الانشاءات قد تم هدمها وازيلت أخرى ، ومن ثم أصبح الاسكان في المدينة القديمة محدودا مما ترتب عليه اضطرار السكان للتوجه الى مناطق أخرى في المدينة . ففي عام ١٩٦٠ مثلا تم هدم معظم مساكن حي الصريفة في بغداد بواسطة الدولة وانشئت منطقة جديدة على الضفة الغربية لنهر دجلة وهي مدينة الثورة للنازحين من الريف (٥٦) .

وفي مصر بعد الاستقلال وخاصة بعد ثورة ١٩٥٢ ، وكذلك في العراق وسوريا ، أصبح هناك نقص مستمر في عدد السكان الاجانب كما يتضح من نسبة السكان غير المسلمين في القاهرة في الفترة من ١٩١٧ الى ١٩٦٠ ، والفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ (الجدول رقم ١) .

ويمكن التعرف على حركة السكان في القاهرة من دراسة الشكل رقم ٨ ، ففي الفترة ما بين عام ١٩٤٧ و ١٩٦٠ كانت حركة السكان تقريبا في كــل الاتجاهات من الحي التجاري في وسط المدينة ، ومن ناحية أخرى كانت الحركة في الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٦ الى أجزاء بعيدة الى الشمال الشرقي والــى الجنوب من الحي التجاري الرئيسي .

اما العامل الذي حدد نمو السكان نسبيا وسط مدينة بغداد فقد كان هجرة اليهود من المدينة بعد الحرب العربية الاسرائيلية في عام ١٩٤٨ ، ولقد قدر عدد اليهود آنذاك بحوالي ٨٠ ألف نسمة (١٩٤٧) وبعد مضي عشر سنوات أصبح عدد اليهود ٣٦٠٠ يهوديا فقط في بغداد (٥٧) . وسرعان ما شغلت الوظائف التي تركها اليهود المهاجرون بالقادمين الجدد من المسيحيين الذين وفدوا من منطقة شمال العراق ومن الاكراد النازحين من الشمال الشرقي . ولقد ظل عدد اليهود في القاهرة أيضا في التناقص . ففي عام ١٩١٧ كان عدد هؤلاء والذين كانوا يتركزون في حي الوايلي والجمالية والازبكية والموسكي وعابدين حوالي ٢٩٢٠٧ يهوديا (٥٨) . وفي عام ١٩٦٠ انخفض هذا العدد الى أن وصل الى ٥٥٨٧ يهوديا فقط ، وتركز معظمهم في المطرية وعابدين (٥٩) . وفي عام ١٩٦٦ أوضح تعداد السكان أن عدد اليهود كان أقل من ٢٠٠٠ نسمة في محافظة القاهرة (٦٠) .

وتواجه المدن الجديدة كذلك والتي قامت على أساس المهنة والتي تتشابه مع التجمعات القديمة من الاحياء بعض التغيرات السكانية ، فهناك مؤشرات تدل على أن اعضاء الجمعيات المهنية عندما يؤجرون أو يبيعون مساكنهم أو الاراضي المخصصة للسكن لغيرهم من أعضاء مهنيين أخر ، يغيرون من النمط السكني الخاص بهم (٦١) ، وان المناطق السكنية للنازحين حديثا الى المدينة والذين ينتمون أصلا الى الريف سوف تتعرض كذلك لحركة سكانية من شأنها أن تضعف من هذا النوع من التركز . ويبدو أن النمط المستقبلي قد يتبع النوع القائم في المدن الغربية أي النوع السكني الذي يقوم أساسا على عوامل اقتصادية بحتة .



عن : البيانات الرسمية للسكان أعوام (١٩٤٧، ١٩٦٠، ١٩٦٦)

شكل (٨)

خاتمة

من خلال هذا البحث يمكن التأكيد على أن المدن غير الغربية بما في ذلك مدن الشرق الاوسط يمكن التعرف على خصائصها بدقة من دراسة الانماط السكنية الخاصة بها وذلك عن طريق الاستفادة من بعض المفاهيم والمداخل التي تعالج مظاهر تحركات السكان . والمدن التي تمت دراستها ـ باستثناء الرياض ـ هي مدن ذات تاريخ عريق ، ومن أجل هذا كانت نماذج ضواحيها وأحياءها معقدة تماما . لذا كان تناول أوضاعها الحالية يتم من خلال دراسة الانماط وتجمعاتها السكنية المتراكمة على مر العصور .

ولفهم أمور هذه المدن فقد تم عرض مدخل ندر كمن خلاله الانماط السكنية لمدن الشرق الاوسط في ثلاث فترات زمنية . والغرض من هذا هو ادراك الى اي مدى تنعزل التجمعات السكانية مكانيا سواء كان على أساس الاصل أو المهنة . وكل ما نهدف اليه في النهاية هو أن العزل السكاني وفقا للاصول الجغرافية للمقيمين من سكان المدن ووفقا لحرفهم قد استمر حتى الفترة المعاصرة ، ففي خلال هذه الفترة ـ باستثناء بعض أجزاء في المدينة ـ أصبح سكان المدن أكثر تحركا من اي وقت مضى نتيجة لعدة عوامل ومن هذه العوامل ما هو اجتماعي وما هو اقتصادي . ولقد أدى ضعف الروابط العائلية الى عملية استحداث مساكن جديدة بواسطة الاسر الشابة الجديدة التي تفرعت من الاسرة الكبيرة . ولقد شجع تحسن المواصلات والنقل الكثير من السكان على السكن في مناطق خارج المدينة القديمة .

ومدن الشرق الاوسط التي تناولناها شهدت نموا سريعا في الآونة الاخيرة أكثر من اي وقت مضى . ويرجع سبب ذلك الى الهجرة من الريف ، كما أن نموها يرتبط كذلك بأوضاعها الاقتصادية والاقتصاد القومي لدولها ، وهذه العواصم تمثل ـ بالاضافة الى وظائفها كمراكز ادارية ـ مناطق للانتاج الصناعي وفرص للعمالة ، كما أنها مراكز للتعليم والترفيه والاستجمام ، فالسكان من شباب القاهرة يرفضون استلام العمل بعد اتمام دراستهم الجامعية بعيدا عن القاهرة ، وينطبق ذلك على الاطباء والمهندسين (٦٢) ، ولقد أدى عامل نمو السكان الى مشكلات الازدحام في المواصلات والسكن وغيرها ، ويلاحظ أن نمو المدن في الشرق الاوسط يفوق طاقتها الاقتصادية ، ومن ثم أصبح هناك تكاثر للعمالة حتى يمكنها امتصاص الاعداد الزائدة ، كما أصبح هناك العديد من السعاة في المؤسسات والمكاتب ، وكثير من الحراس للمباني

المتزايدة بالاضافة الى عمال النظافة وغيرهم ، وهناك جماعات اصطلح على تسميتهم سياس (مفردها سايس) لحراسة السيارات في مراكز تجمعها ولمساعدة سائقيها على الوقوف والخروج منها ، بالاضافة الى العمال الذين يجلبون سيارات الاجرة لعملائهم (٦٣) .

وبعض النماذج التي يظن انها تساعد على تفسير تركيب المدن غير الغربية (وبعضها يعالج النموذج الايكولوجي للمدن) ، قد اتضح ان مثل هذه النماذج غير كافية لايضاح أو تفسير نموذج المدينة في الشرق الاوسط . وأحد هذه النماذج الذي كان يقوم أساسا على الاساس الحضاري ونقصد به نموذج المدينة ما قبل الصناعة ، تم تعديله من قبل واضعه لكي يلائم التركيب المتغير للمدن في العالم النامي (٦٤) .

ومن المهم أن ندرك أن طبيعة المراحل الانتقالية هذه سوف تؤدي بل وتعمل على احداث تغييرات اجتماعية ومكانية مشابهة في مختلف المجتمعات (٦٥)، وفي بعض مدن الشرق الاوسط نجد أن مثل هذه التغييرات تحدث كنتيجة للارتباط أو الاتصال المباشر بالافكار من الغرب ويتم تعديلها محليا (٦٦) ، الا أن التغير في بعض المجتمعات الاخرى يتم محليا رغم التأثير الخارجي .

ومن المعروف الان تماما عن دول العالم الثالث أن الازدواج الحضاري فيها أمر واضح خاصة في دول جنوب وجنوب شرق آسيا وفي أفريقيا كنتيجة للاستعمار ، ومع ذلك فان تأثير الغرب في مدن الشرق الاوسط ما زال غير مفهوم تماما لذا فان الحاجة تدعو الى المزيد من الدراسات لفهمها .

جدول رقم (١)

سكان مدينة القاهرة غير المسلمين (١٩١٧ ــ ١٩٦٦) (١)						
	١٩١٧		١٩٦٠		١٩٦٦	
الحي السكني	السكان	٪	السكان	٪	السكان	٪
شبرا	٨٠٥٤٤	٣١	٢٩٦٠٠٨	٢٦	٤١٢٣١٢	٢١
بولاق	١١١٥٤٣	٩	٢٠٢٠٢٣	٥	٢٠١٥٧١	٤
الازبكية	٥٦٤٠٢	٧٢	٦٤٠٣٢	٤١	٦٣٦٩٧	٣٧
الوايـــلي	٧٨٥٠٠	٢٤	٣٠٧١٧٣	٨	٣٦٢١٠٨	٩
باب الشعرية	٦٥١٠٣	٢٤	١٥٣١٣١	٦	١٤٩٦٣٨	٥
الجمالية	٦٢٣٢٩	١٣	١٤١٧٢٤	٤	١٥٠٨٧٣	٤
الموسكي	٢٣٦٥٩	٥٠	٣٨٤٦٩	١٣	٣٦٢٩٦	١١
عابدين	٧٢٣٩٤	٢٦	٩٤٩٦٩	١٤	٩٨٥٣٠	١٠
الدرب الاحمر	٦٩٠٧٩	٤	١٤٨٦٠٦	١	١٥١٩٤٧	١
السيدة زينب	٧٦٦١٦	٤	٢٥٣٦٤٨	١	٢٧٦٦٦٠	٢
الخليفة	٥٩٨٠٢	١	١٦١٩٥٨	ر٤	٢٣٣٢٢٥	٠ر٥
مصر القديمة	٣٤٩٦٨	٩	٢١٢٢٣٣	٦	٢٥٤٣٥٣	٥
الزيتون	—	—	١٠٠٣٧٤	١	١٢٩٣١٤	١١
الساحل	—	—	٣٠٣٦٠٢	١٧	٣٧٦٨٧٩	١٧
الازهـــر	—	—	٩٩٦١٧	٢٤	١٠٩٣٣٢	٢٢
المطرية	—	—	١٦٠٨٢٠	٧	٣١٥٤٨٧	٦
المعادي	—	—	٨٣٠٠٠	٥	١٤٠٥٣٣	٥
روض الفرج	—	—	٢٦٥١٣٩	٢٣	٢٨٣٠٢٤	٢٢
قصر النيل	—	—	٤٣٠٩٧	٢٩	٤٠٩٧٩	٢٥
مصر الجديدة	—	—	١٢٤٧٧٤	٢٨	٢٥٤٣٥٣	٢٤
النزهـــة	—	—	—	—	٦٣٢٣٢	٢٣

عن : زويمر ١٩٢٠ ص ص ٢٦٦ ــ ٢٧٣ وتعدادي سكان مصر ١٩٦٠ ، ١٩٦٦ .

جدول رقم (٢)

نمو السكان في اربع مدن (عواصم) بالشرق الاوسط		
المدينة	السنة	عدد السكان
القاهرة (١)	١٩١٧	٧٩٠٩٣٩
	١٩٤٧	٢٠٩٠٦٥٤
	١٩٦٠	٣٢٥٤٣٩٧
	١٩٦٦	٤١٠٤٤٣٣
بغداد (٢)	١٩٠٤	١٤٠٠٠٠
	١٩٤٧	٥١٥٤٥٩
	١٩٥٧	٧٩٣١٨٣
	١٩٦٥ (تقدير)	١١٠٠٠٠٠
دمشق (٣)	١٩٢٣	١٧٢٨٤٦
	١٩٤٧	٣١٠٢٤٦
	١٩٦٠	٥٢٩٩٦٣
	١٩٦٤	٥٦٢٩٠٧
الرياض (٤)	١٩٣٥ (تقدير)	٣٦٠٠٠
	١٩٤٥ (تقدير)	٦٢٠٠٠
	١٩٦٠ (تقدير)	١٨١٠٠٠
	١٩٦٥ (تقدير)	٢١٨٠٠٠

١ ـــ زويمر (١٩٢٠) ص ص (٢٦٦ ـــ ٢٧٣) لبيانات عام ١٩١٧ ، والتعدادات العامة للسكان بمصر لاعوام ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٦ .

٢ ـــ جوليـــــك ١٩٦٧ (ص ٢٨٤) .

٣ ـــ خـــير ١٩٦٩ (ص ٢١٥) .

٤ ـــ دوكسيادس ١٩٦٨ (ص ٨٣) .

الهوامش

1- W.J. Fischel, "The City in Islam," **Middle Eastern Affairs,** 7 (June-July, 1956), 227-232.

2- G. Hamdan, "The Pattern Medieval Urbanism in the Arab World," **Geography,** 47 (1962), 121-134.

3- I.M. Lapidus, "Muslim Cities and Islamic Societies," in **Middle Eastern Cities** (Ed.) I.M. Lapidus (Berkeley: University of California Press, 1969), 47-79.

4- J. Gulick, **Tripoli: A Modern Arab City** (Cambridge: Harvard University Press, 1967a), 153.

5- Lapidus, **op. cit.,** (1969), pp. 63-64. English (1966) has confirmed the quarter patterns in kirman city in Iran which is a small city; see: P.W. English, **City and Village in Iran,** Madison: The University of Wisconsin Press, 1966. Shiraz, another city in Iran had 17 quarters and 9 gates during the 14th century see: J.I. Clarke, **(The Iranian City of Shiraz,** University of Durham Research Papers Series No. 7, 1963), 13.

6- I.M. Lapidus, **Muslim Cities in the Later Middle Ages,** (Cambridge: Harvard University Press, 1967) 85.

7- Bulick, **op. cit.,** (1967a), 158.

8- J. Gulick, "Baghdad, Portrait of a City in Physical and Cultural Change," **Journal of the American Institute of Planners, 34** (July, 1967b), 246.

9- W.G. Palagrave, **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia: 1862-1863,** (London: Macmillan and Co., Ltd, 1908), 265.

10- N.A. Ziadeh, **Urban Life in Syria Under the Early Mamluks,** (Beirut: American University of Beirut Publication, 1953), 75. See also: A Rihaoui, **Damas Vieille,** (Damascus, 1969), 153.

11- Lapidus, **op. cit.,** (1967), 87.

١٢- ص . خير . **مدينة دمشق : دراسة في جغرافية المدن** . دمشق ، ١٩٦٩ ، ١٥٨ .

13- Sir H. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West: A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East,** (London: University Press, 1950), 276.

14- Deplanhol, **The World of Islam,** (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1969), 9.

15- N.A. Ziadeh, **Damascus Under the Mamluks,** Norman: University of Okalhoma Press, 1964.

16- Lapidus, **op. cit.,** (1967), 85.

17- Ibid., 87.

18- J. Abu-Lughad, **Cairo 1001 Years of the City Victorious** (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1971), 23.

19- Ibid., 59, 60.

٢٠- خير . سبق ذكره . ١٩٦٩ ، ص ١٧٦ .

21- G. Baer, **Studies in the Social History of Modern Egypt,** (Chicago: The University of Chicago Press, 1969), 141.

22- Ibid., 145.

23- Abu-Lughud **op. cit.,** (1971), 115.

24- Gulick, **op. cit.,** (1967b), 246.

25- See: Bare, **op. cit.,** (1969) about Egyptian guilds in modern times.

26- Abu-Lughad, **op. cit.,** (1971).

27- Based on Abu-Lughad, (1971).

٢٨- خير . سبق ذكره . ١٩٦٩ ، ص ٢٠٤ .

٢٩- كسابقه . ص ٢٠٥ .

30- W.C. Fox, **"Baghdad, A City in Transition," East Lakes Geographer,** 5 (1969), 8-11.

31- Ibid., 10.

32- R. Coke, **Baghdad, The City of Peace,** (London: Thorton Butterworth, Ltd., 1927), 273, 277.

33- S.G. Shiber, "Planning Needs and Obstacles," in **The New Metropolis in the Arab World,** (Ed.) M. Berger, (ew Delhi: Allied Publishers, 1963), 170.

34- United Nations, **Administrative Problems of Rapid Urban Growth in the Arab World,** (New York, 1964), 171.

35- M. Berger, **The Arab World Today (**Garden City, N.Y.: Doubleday Co., Inc., 1962), 97.

36- I. Rayeb, "Patterns of urban Growth in the Middle East," in **The City in Newly Developing Countries,** Ed.) G. Breese, (Englewood Cliffs: Princeton University Press, 1969), 106.

37- K. Davis, **World Urbanization 1950-1970 Volume 1 : Basic Data for Cities, Countries and Regions,** (Berkeley: Inst-

itute of International Studies, University of California, 1969), 73-129.

38- E.H. Tuma, "Agrarian Reform and Urbanization in the Middle East, **The Middle East Journal, 24** (Spring, 1970), 163-177.

39- R.A. Fernea, "Land Reform in Post-Revolutionary Iraq," **Economic Development and Cultural Change, 17** (April, 1968), 356-381.

40- D.G. Philips, "Rural-to-Urban Migration in Irag," **Economic Development and Cultural Change,** 7 (July, 1959), 405-421.

41- R.I. Lawless, "Iraq: Changing Population Patterns," in **Populations of the Middle East and North Africa** (Eds.), J.J. Clarke and W.B. Fisher, (London: University of London Press, Ltd., 1972), 97-129.

42- J. Abu-Lughad, "Varieties of Urban Experience: Contrast, Coexistence and Coalescence in Cairo," in **Middle Eastern Cities,** (Ed.), I.M. Lapids, (Berkeley: University of California Press, 1969), 168.

43- Doxiadis Associate-Consuıtants, **Riyadh: Existing Conditions,** (Athens, July, 1968), 96.

٤٤- خير سبق ذكره . ١٩٦٩ ، ص ٢٤٧ .

45- J. Abu-Lughad, "Migrant Adjustment to City Life: The Egyption Case," **The American Journal of Sociology,** 67 (July, 1961), 26.

46- Ibid., 28.

47- Philips, **op. cit.,** (1959), 405-421.

48- Fox, **op. cit.,** (1969), 14.

٤٩- خير . سبق ذكره . ١٩٤٩ ، ص ٢٤٦ .

50- M.T. Abul-Ela, "Some Geographical Aspects of Riyadh, Saudi Arabia," **Bulletin de la Société De Geographie D'Egypte,** 38 (1965), 48.

51- Gulick, **op. cit.,** (1967b), 252.

52- Abul-Ela, **op. cit.,** (1965), 51.

53- S. Zabbal, "Misr el Jadeedah," (New Cairo), **Arabi,** 46 (September, 1962), 78.

54- Ibid., 80.

55- Abu-Lughad, **op. cit.,** (1971), 221.

56- Fox, **op. cit.,** (1969), 21. Sarifas are huts.

57- Gulick, **op. cit.,** (1967b) 252.

58- S.M. Zwemer, "The City of Cairo According to the Census of 1917." **Muslim World,** 10 (1920), 266.

٥٩- الجمهورية العربية المتحدة ، التعداد العام للسكان ، القاهرة – المطبعة الأميرية ، ١٩٦٢ ، (المجلد الأول – جزء ٢٣) ٤ – ٦ .

٦٠- الجمهورية العربية المتحدة ، الجهاز المركزى للتعبئة العامة ، النتائج النهائية لتعداد السكان ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٦٧ ، المجلد الثاني ، ١٦ (ارجع إلى الشكل رقم ٧ بخصوص مواقع الحدود) .

61- Fox, **op. cit.,** (1969), 22.

٦٢- م . ناصف ، مجلة العربي – ١٦٦ (سبتمبر ١٩٧٢) ص ١٢٦ .

63- Berger, **op. cit.,** (1962), 91-116.

64- G. Sjoberg, "Cities in Developing and in Industrial Societies: A Cross-Cultural Analysis, in **The Study of Urbanization** (Eds.) P.M. Hauser and L.F. Schnore, (New York: John Wiley and Sons, Inc., 1965), 213-263

65- Fox, **op. cit.,** (1969), 5.

66- **Ibid.,** 23.

صدر من هذه النشرة

١ ــ زراعة الواحة في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية
ترجمة الدكتور زين الدين عبدالمقصود

٢ ــ أسس البحث الجمرفلوجي مع الاهتمام بالوسائل العلمية المناسبة للبيئة العربية
بقلم : الدكتور طه محمد جاد
الدكتور عبدالله الغنيم

٣ ــ توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر)
ترجمة : الدكتور عبدالاله أبو عياش

٤ ــ أثر التصحر كما تظهره الخرائط
ترجمة : الدكتور علي علي البنا

٥ ــ سكان ايران ، دراسة في التغير الديموجرافي
ترجمة : الدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبي

٦ ــ القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية
ترجمة : حسين علي اللبودي

٧ ــ سكان دولة الامارات العربية المتحدة
بقلم : الدكتورة أمل يوسف العذبي الصباح

٨ ــ السياسات السكانية في افريقيــة
ترجمة : أ.د.محمد عبدالغني سعودي

٩ ـ أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب

أ.د.محمد رشيد الفيل

١٠ـ نحو تصنيف مورفولجي لمنخفضات الصحراء

بقلم : دكتور صلاح الدين بحيري

١١ـ مواد السطح في البحرين ـ مسح المصادر واهميته التطبيقية للتخطيط الاقليمي

ترجمة : أ.د.حسن طه نجم

١٢ـ الطاقـــة والمنـــاخ

ترجمة : د. زين‌الدين عبدالمقصود

١٣ـ التطبيق الهندسي للخرائط الجيومورفولوجية

بقلم : د. يحيى عيسى فرحان

١٤ـ بعض عواقب الهجرة على التنمية الاقتصادية الريفية في الجمهورية العربية اليمنية

ترجمة : د. عبدالاله أبو عياش

١٥ـ البعثة العلمية الى شبه جزيرة مسندم (شمال عمان)

ترجمة : أ.د. محمود طه أبو العلا

تنفيـذ : أملكـو للخـدمات
الكـويت ، لبنـان
ص.ب : ٢٤٢٦٧ الصفـاة

الاعداد القادمة

ـ تجارة الخليج بين المد والجزر

بقلم : د. عطية القوصي
العدد (١٨)
يونيو (حزيران) ١٩٨٠

ـ نظرات في الفكر الجغرافي الحديث

بقلم : د. طه محمد جاد
العدد (١٩)
يوليو (تموز) ١٩٨٠

طباعة شركة المطبعة العصرية ومكتباتها
الكويت